

المصادر القديمة في تاريخ دمشق

د. علي أبو عساف

المدير العام للآثار والمتاحف

لم يجد سكان دمشق القدماء مستقرا لهم في أطراف جبل قاسيون، بل في السهل على ضفاف بردى، حيث نشأت دمشق، وحيث بقيت أقدم أطلالها، رغم ما حاق بها من دمار وخراب. ولقد تقلبت أحوال دمشق، شأنها في ذلك شأن العواصم العربية الأخرى. فقد كانت عاصمة مملكة أمورية/كنعانية قوية زالت، فحلت محلها مملكة آرامية، ما لبثت هي الأخرى أن اندثرت، وأصبحت دمشق مقر ولاية حتى جعلها بنو أمية عاصمة أول دولة عربية قوية. ولما انتقلت العاصمة إلى بغداد عادت دمشق مدينة إدارية ثانوية، وفي عصرنا الحاضر غدت دمشق عاصمة الجمهورية العربية السورية ولها دور كبير في التاريخ العربي المعاصر. وكنا نتوقع أن نجد أصداء ذلك كله في الكتب التي ألفت عن دمشق، ولكننا لا نجده إلا مجزأ لأن مصادر تاريخ عصور دمشق الأولى كانت قد اختفت، وانظمرت مع غيرها من الآثار تحت انقاض دمشق، كغيرها من العواصم القديمة التي سادت ثم بادت.

وفي المكتبات المحلية والخارجية مؤلفات هامة وقيمة، ألفها باحثون عرب وأجانب، هي في واقع الأمر وصف لآثار المدينة الباقية، وتاريخ للأحداث التي وقعت في البلاد عامة، ودمشق خاصة، بعد الفتح العربي الإسلامي. ولا يتسع المجال هنا لذكر هذه المؤلفات وقد تكفي الإشارة إلى بعضها ككتاب «مدينة دمشق»، تراثها ومعالمها التاريخية» لعبد القادر الريحاوي ففيه ذكر عدد من الأعلام الذين أسهموا في كتابة تاريخ دمشق ووصف آثارها.

ومع تقدم علم الآثار، وازدياد الاهتمام بالتنقيب عن الآثار بمختلف المناطق، ونشر نتائج التنقيب وخاصة الوثائق المكتوبة، التي عثر عليها في المدن الآشورية كلخو/النمرود، ونيوي ودور شروكين/قورشباده، أصبحت بين أيدينا وثائق تسعفنا في استكمال الدراسات عن تاريخ دمشق.

وقد بذل باحثون عرب وأجانب جهدا متميزا في هذا المضمار، أذكر منهم بشير زهدي، الذي كتب منذ ثلاثة عقود بحثا عنوانه مملكة دمشق الآرامية، نشر في مجلة الحوليات الآثرية العربية السورية (١). ونشرت بعدئذ هيلين صادر كتابا عنوانه الممالك الآرامية، أفردت فيه فصلا هاما لمملكة دمشق الآرامية (٢). وأخيرا وليس آخرا،

الف الباحث الامريكي واين بيتارد كتابا هاما عنوانه (دمشق القديمة) ، وهو كتاب جامع وقيم ، يبحث في تاريخ مدينة دمشق ومنطقتها ، اي غوطتها ، منذ اقدم العصور وحتى سقوط المدينة بأيدي الاشوريين عام ٧٣٢ ق.م (٢) . وقد اشير الى هذه المصادر في كتاب (الاراميون تاريخا ولغة وفنا) ، الذي ضم ايضا فصلا عن مملكة دمشق الارامية (راجع الحاشية رقم -١٢-) .

وسيتناول هذا البحث مصادر تاريخ دمشق القديمة بايجاز ، ثم يعرض ما قيل في اسم المدينة ثم ينتقل لتتبع اخبارها من مطلع الالف الثاني ق.م وحتى سقوطها في ايدي الاشوريين عام ٧٣٢ ق.م .

اسم المدينة :

حظي باهتمام الباحثين الذين ارادوا معرفة اشتقاقه فتتبعوا مراحل كتابته في الوثائق المتنوعة . ففي عهد الفرعون تحوتمس الثالث ١٤٩٠ - ١٤٣٦ كتب اسم دمشق (ت م س ق) وذلك على جدران معبد الكرنك ضمن قائمة اسماء المدن التي غزاها هذا الفرعون في عام حكمه الثالث والثلاثين . أما في عهد الفرعونين امنحوتب الثالث ١٤٠٣ - ١٣٦٤ وامنحوتب الرابع (اخناتون) ١٣٦٤ - ١٣٤٧ فقد كتب تمسق وتمشق ودمشق (٤) .

وفي كتاب العهد القديم لم يكتب الاسم بصيغة واحدة بل سجل مرة دَمَشَق وأخرى دَمَشَق وثالثة دارمِسَق (٥) . أما الآشوريون حين غزوا بلاد الشام في عهد ملوك المملكة الحديثة من عام ٩١٢ - ٦١٢ ق.م فقد دونوه في وثائقهم بصيغة واحدة تقريبا هي دمشق . أما الآراميون الذين جعلوا من دمشق أبهى مدينة فقد كتبوه دمشق أيضا .

ومما سبق يمكننا القول أن اسم دمشق قديم ، لم يطرأ عليه تعديل أو تحريف، إنما استبدل حرف الدال بالتاء وحرف الشين بالسين عند الفراعنة لأن الكتاب سمعوه هكذا على الأرجح . على أن الصيغة التي شغلت الباحثين هي دارمِسَق التي وردت في سفر الاخبار الثاني الاصحاح السادس عشر، الآية الثانية والاصحاح الرابع والعشرين الآية الثالثة والعشرين ، والاصحاح الثامن والعشرين الآية الخامسة والآية الثالثة والعشرين . حقا ، هذه الصيغة ملفتة للنظر ، وتستحق أن تتشعب الآراء حولها . فهي مخالفة لكل الصيغ الأخرى ويمكن تحليلها . لقد رأى عدد من الباحثين أن الاسم مركب من اسم المكان دار واسم العلم مش الذي هو اسم الرب شمس مختزلا . وقد الحق حرف القاف بدلا من المقطع كي في آخر الاسم للإشارة إلى أن الاسم هو اسم

مدينة حسب القواعد الاكادية . هذا رأي ، أما الرأي الاخر فيرى أن مسق هو اسم مفعول من الفعل سقى ويصبح معنى دارمشق / دمشق دار السقاية .

والى جانب هذين الرأيين اللذين انطلقا من تحليل كلمة دارمشق، يوجد رأي ثالث يقول في كلمة دمشق انها مركبة من اسم الاشارة ذو / ذي / ذات زائد مشق أي ذومشق أو ذاتمشق ، ويصبح معناها ذو السقي أو ذات السقي . أما اذا كانت الميم مشددة كما هو عليه الحال في سفر أخبار الايام الثاني ، الذي أشرت اليه أعلاه، فيصبح معنى كلمة مسق / مشق التربة الكلسية أو الفضارية بالاستناد الى الكلمة العربية المشق التي تعني التربة الفضارية ، فيكون معنى دمشق ذات التربة الفضارية (٦) . ويتبين من هذا الذي ذكرته أن الآراء غير متفقة حول معنى الاسم ، غير أنها جميعها تنطلق من كون الاسم كنعاني، وأنه وصف لبيئة دمشق ووظيفة المكان .

آفه ودمشق :

لقد أصبح مؤكداً أن المنطقة التي تحيط بدمشق كانت تدعى آفوم / آبوم . وقد ذكرت لأول مرة في نصوص الاحتقار المصرية ، التي تعود الى عصر الامبراطورية الوسطى ٢٠٥٢ - ١٧٧٨ ق.م . وقد كانت هذه النصوص شحيحة ، لا تحوي سوى أسماء الامراء مضافا اليهم أحيانا اسم المكان أو بالعكس . ومهما يكن الامر فإن آفوم كانت قوية وهامة بحيث استخفت جعلها في عداد الممالك المعادية للفراعنة .

وفي عصر العمارنة تبادل أمراء بلاد الشام الكنعانيون ، وفرعون مصر اخناتون الرسائل التي يستدل منها أن آفو كانت امارتين شمالية ويحكمها أمير كنعاني اسمه آخو كبكب أي آخو / كوكب وجنوبية ويحكمها أمير لم يذكر اسمه ، أو أن اسمه كان مشوها . وقد يعني هذا أن آفه كانت واسعة فوجب تقسيمها الى امارتين . وهذا يؤيد ما قلناه قبل قليل انها كانت ذات قوة جعلتها في مصاف الممالك المعادية لفراعنة الامبراطورية الوسطى (٧) .

ان القول بوجود امارتين في آفه لا يفيد في تحديد حدود البلاد انما يجعلنا نفترض بأنها كانت واسعة . والذي يفيدنا في هذا المضمار الوضع السياسي الذي كان قائما آنذاك . اذ قامت ممالك وامارات ومشيخات كنعانية في بلاد الشام تعرفنا على اسمائها من رسائل العمارنة اياها ، وحددنا مواقعها على ضوء معطيات تاريخية وجغرافية في فلسطين والمناطق الممتدة بين نهري الزرقاء واليرموك وفي حوران ، ولا شك أن آفه كانت شمالي هذه الامارات الكنعانية وجنوب مملكتي قادش وقطنة في محافظة حمص . هذا من جهة ومن جهة أخرى فإن البقاع وسلسلة الجبال الممتدة الى الشرق منه كانت

تابعة لآفه لأن مدينة كومدي التي تتمثل الآن في موقع كامد اللوز بالبقاء الجنوبي كانت توصف بأنها مدينة في آفه .

وقد جاء تأكيد هذه الحدود في الوثائق الحثية والفرعونية التي تعود الى ما بعد عام ١٢٩٠ ق.م أي الى الحقبة الزمنية التي أعقبت معركة قادش عام ١٢٨٥ ق.م بين رمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٣ ق.م) والملك الحثي موغالي . ففي عام ١٢٥٦ ق.م تزوج رمسيس الثاني من ابنة الملك الحثي خاتوشيلي الثالث . وقد سار موكب العروس من خاتوشا عاصمة الحثيين حتى مدينة أيو التي ينتهي عندها النفوذ الحثي ومن أيو قاد موكب العروس رجال وقادة جيش آفه حتى مصر (٨) أن أطلا أيو في تل أيو الذي يقع جنوبي حماة على بعد نحو سبعة كيلومترات الى يسار الطريق العام بين حمص وحماة حيث حدود منطقة النفوذ الحثي في بلاد الشام ، ويتاخمها في الجنوب آفه .

ويطيب لي في هذا المقام أن أوضح أمرا هاما فيما يخص آفه . فقد عثر في دار محفوظات قصر ماري ، التي تعود الى عصر زمري ليم (١٧٨٢ - ١٧٥٩ ق.م) على رقم طينية سطرت عليها الجملتان التاليتان خيايم ملك أبيم وزوزو ملك أبيم . وقد افترض العلامة جورج دوسان ، الذي نشر وثائق ماري أن أبي/إفي هي آفه الكنعانية ، وأيده في ذلك بعض الباحثين ، وخالفه البعض الآخر ، لأن أبي /إفي يجب أن تكون مجاورة لمملكة ماري . وهي ذات المدينة التي طالما تردد اسمها في وثائق المحطة التجارية الآشورية كانيش في كبدوكيا ، جنوبي قرل إرماق الى الشمال الشرقي من مدينة قيصرية على بعد نحو ٢٠ كم . وآفه هذه مدينة تعبرها القوافل المتنقلة بين آشور وكنائش وبالعكس . وقد ذكرت مع شوبات انليل التي تتوضع أطلالها الآن في تل ليلان الى الشمال الشرقي من مدينة القامشلي ، ومع عدد من المدن الأخرى المتوضعة على الخابور أو على الطرق الواصلة بين كائيش وشوبات انليل وإيكلاتم وآشور . فهي اذن على الخابور في منطقة الجزيرة . وقد كانت هناك مملكتان تسميان آفه واحدة في الجزيرة وأخرى في بلاد الشام الجنوبية كما وضحنا أعلاه (٩) .

وحين نقرر هذه الحقيقة ينبغي أن نقصر الحديث على آفه الجنوبية حيث تقع دمشق ، وحيث كانت آفه وغيرها من الممالك الكنعانية التي قامت في بلاد الشام في الألف الثاني ق.م . متسالة أو متعادية ، بقيت تنعم بالاستقرار النسبي حتى بدأت مصر الفرعونية والمملكة الحثية تتحركان باتجاه بلاد الشام . ففي عهد تحوتمس الثالث (١٤٩٠ - ١٤٣٦ ق.م) خضعت بلاد الشام بأكملها الى هذا الفرعون الذي كان قد

استاء من الركود الذي آلت اليه حركة التوسع الفرعوني في بلاد الشام ابان عهد الفرعون تحوتمس الثاني (١٤٩٤ - ١٤٩٠ ق.م) واخته حاتشبسوت الملكة القوية التي نصبت وصية على تحوتمس الثالث ، فما ان بلغ رشده حتى شد الرحال الى بلاد الشام وتدفقت جيوشه الى فلسطين . وما ان سمع ملك قادش الذي نجعل اسمه بزحف الفرعون وجيوشه على بلاد الشام حتى تنادى هو ومئة وتسعة عشر ملكا كنعانيا للدفاع عن ممالكهم ، ومقابلة الجيش الفرعوني في فلسطين .

زحفت الجيوش الفرعونية وزحفت جيوش تحالف الممالك الكنعانية للاقاة بعضهم ، فتقابلوا بسهل مجدو عند اطراف جبال الكرمل الجنوبية الشرقية - وبعد مناوشات وتقاتل انكفأ الكنعانيون الى مدينة مجدو فحاصروهم الفرعون سبعة أشهر ، استسلموا له بعدها . وذلك حسب الرواية الفرعونية من الوثائق . خضعت بلاد الشام لهذا الفرعون الذي لم يترك مجالا للميتانيين والحثيين أن ينفذوا الى بلاد الشام . أما في عهد الفرعون امنحوتب الثاني (١٤٣٨ - ١٤١٢) وتحوتمس الرابع (١٤١٢ - ١٤٠٣) ق.م فقد بقيت الاوضاع كما كانت عليه .

وفي عصر العمارنة ، الذي يبدأ في عهد الفرعون امنحوتب الثالث (١٤٠٣ - ١٣٦٤) ق.م وينتهي بانتهاء عهد امنحوتب الرابع / اخناتون (١٣٦٤ - ١٣٤٧ ق.م) . فقد تعزز النفوذ المصري ونظمت البلاد اداريا فقسمت الى ثلاث مقاطعات ، جنوبية وعاصمتها غزة ، وشمالية غربية وعاصمتها صمورا على ضفاف نهر الابرش ، التي هي على الأرجح تل الكزل الآن ، وأخيرا المقاطعة الشمالية الشرقية التي كانت عاصمتها كومدي التي هي الآن كامد للوز في البقاع الجنوبي .

وبذلك أشرف الفراعنة على امور البلاد ونظموها على نحو يتيح لهم تأمين الاستقرار والطمأنينة لحكمهم والذي يهمننا في هذا السياق أن نعرف مدى اتساع المقاطعة الشمالية الشرقية التي كانت كومدي مقرا لها . لقد ضمت هذه المقاطعة أو الولاية اذا شئتم البقاع الجنوبي ، وسهل الحولة ، ومنطقة باشان الممتدة من نهر الرقاد/العلان في الغرب وحتى اطراف جبل العرب في الشرق ومن نهر اليرموك في الجنوب حتى الصنمين في الشمال . ومن المرجح أن آفه بأكملها مع دمشق كانت تابعة لكومدي مقر الملك الكنعاني والوالي الفرعوني .

والواقع أنه إبان عصر العمارنة حدثت هزات وأحداث زعزعت الامن والنظام في هذه المقاطعات ، وانعكست آثارها على التوازن بين الممالك الكنعانية . وكان من بين هذه الاحداث ظهور ملك قوي يدعى بيراوza ، اختلفت الآراء حول هويته فمنهم من يظن بأن اسمه غير كنعاني وقد يكون من أصل حوري ميتاني (١٠) دخل الخدمة في الادارة

الفرعونية وحينما قوي نفوذه سار من دمشق الى كومدي ، فاحتلها وأعلن من هناك ولائه للفرعون وذلك برسالة ارسلها الى اخناتون (رقمها ١٩٧ في السجل الحالي لرسائل العمارنة) . كان الدافع وراء حركة بيراوا التصدي للجماعات التي كانت تنادي بالتخلص من النفوذ الفرعوني ، والتحالف مع الحثيين والميتانيين والوقوف الى جانب مملكتي قادش وقطنة ضد الفراعنة .

وهنا يجب أن نتساءل لماذا اختار بيراوا الفراعنة ، وفضلهم على بني قومه الميتانيين ؟ لسنا مع الرأي القائل بأنه من أصل حوري ميتاني ، فاسمه مركب من برايا المخلوق مضافا اليه زا /زو العظمة والفخار/ . ومهما يكن الامر فان بيراوا قد جعل دمشق مقرا له في القرن الرابع عشر ق.م ومنها انطلق الى الشمال والجنوب .

ونحن نعلم من رسائل العمارنة أن ممالك المدن الكنعانية المنتشرة من سهول اربد في الجنوب وحتى عين عفا ودبر القدس وغابغب في الشمال قد سارت في ركابه كما وسار في ركابه أيضا الممالك التي كانت متوضعة بين اراضي حسيما / نحسي في الشمال ، وحتى مناطق صيدنايا ومضايا في الجنوب . ولم يتصد له ويعاديه الا مملكتا قادش وقطنة في الشمال . لقد عملت هاتان المملكتان للقضاء عليه فلم تفلحا ، وخاب ظن ملكيهما ابتكاما واكرزي ، واصاب الممالك الكنعانية التفكك والتشرذم جراء ذلك .

بعد وفاة اخناتون المسالم ، رجل المفاوضات السلمية ، سار خليفته سيمينخ كارع وتوث عنخ آمون على خطاه ، ولم يحاولوا غزو البلاد ، بل اكتفوا بادارتها من بعيد . واستمر الحال على هذا المنوال حتى تلاشى النفوذ المصري ، وزادت اطماع الحثيين بالبلاد. وبدأ ملوكها خاتوشيلي الثاني وشوبيليلوما ومورشيلي طيلة القرن الرابع عشر ق.م. غزو بلاد الشام وعقد المعاهدات مع ملوك موكيش / اللالغ وأجاريت وأمورو وقادش . ولم يكتفوا بذلك بل رغبوا في التوسع جنوبا ، وحرصوا الممالك الكنعانية في الجنوب على التخلص من النفوذ المصري .

لم يرق هذا الامر للفرعون سيتي الاول (١٣٠٥ - ١٢٩٠) فخرج بجيوشه من مصر واجتاح معظم مناطق بلاد الشام الجنوبية وبعد وفاته سار رعمسيس الثاني (١٢٩٠ - ١٢٢٣) ق.م على الطريق الذي سلكه سيتي، ونجح في اعادة النفوذ المصري وتثبيت اقدمه في بلاد الشام الجنوبية . الا أن الامر لم يطل حتى سارع الحثيون بقيادة ملكهم موفاتلي الرابع (١٢٨٣ - ١٣٠٠) ق.م . للتصدي للمصريين فحشد الجانبان الجيوش وتلاقوا في قادش حيث وقعت المعركة ، وتفرق الجيشان من غير أن ينتصر واحد على الآخر . تلى ذلك عقد معاهدة بين الطرفين واستتباب الامر للفراعنة في بلاد الشام الجنوبية من حماه وحتى سيناء ، وللحثيين في بلاد الشام الشمالية .

وان أردنا أن نلخص ما قلناه في آفه ودمشق وأحوالهما في الالف الثاني ق.م .

لقلنا ان اخبارهما كانت شحيحة ، و اتت في معظمها من المصادر الفرعونية الحثية . ولا تضم هذه الاخبار معلومات عن الاحداث السياسية التي وقعت في دمشق اللهم الا انها كانت عاصمة آفه في عهد بيراوza الذي كان على ما يبدو اعظم ملوكها ، والا لما وصل اسمه الى ياقوت الحموي بصيغة بيراويسف (معجم البلدان ، المجلد الثاني ، ص ٥٨٧) على أنه باني دمشق . لم يذكر ياقوت المصدر الذي نقل عنه . ومع ذلك هو هام لان بيراويسف هو بلا شك تحريف لاسم بيراوza . ولو لم يكن بيراوza اعظم ملوك دمشق الكنعانيين وأقواهم وأفضلهم لما توارثت الاجيال اسمه حتى دَوَّته ياقوت .

وأخيرا ، يجدر بنا عند الحديث عن آفه ودمشق الوقوف عند معنى كلمة آفه . لقد وردت هذه الكلمة في النصوص الاكادية والبابلية والاشورية بمعنى نبات القصب . ويرجح الباحث أولبرايت وغيره أن آفه تعني القصب ، وأن نبات القصب كان ينمو بكثرة على ضفاف بحيرتي العتبية والهيجانة . وعلى ذلك فان اسم آفه هو وصف لبيئة دمشق النباتية وخاصة القصب الذي يستفاد منه في البناء . وهكذا كان معنى دمشق : ذات التربة الفضارية . ومهما يكن من أمر فان اسم آفه قد اختفى باختفاء الكنعانيين وحلت محله عبارة : مات شا حمير شو - بلاد الحمير . بينما بقى اسم دمشق كمدينة .

جاء اختفاء اسم آفه مع ظهور الاراميين على مسرح الاحداث في بلاد الهلال الخصيب فحركة القبائل الآرامية كانت قد بدأت عند منتصف الالف الثاني ق.م بالانتشار في أنحاء بلاد الهلال الخصيب ، ومن غير عنف وقاتل أقام الاراميون ممالك متفرقة على انقاض الممالك الكنعانية المندثرة . حدث ذلك والمملكة الاشورية في شمالي العراق كانت تشهد نهضة قوية وترقب حركة القبائل الآرامية بالشك والريب . وما أن أطل القرن التاسع ق.م . حتى أخذ ملوكها في شن الحروب على الممالك الآرامية الواحدة تلو الاخرى ، ومنها بالطبع دمشق .

ولن ندخل هنا في تفصيل تاريخ الاراميين ، بل نعرض الى مملكة دمشق فقط ، ومصادرنا عنها : الوثائق الاشورية ، وبعض اصحاحات كتاب العهد القديم ، ونص او نصان آراميان . وكما اشرنا اعلاه فان النصوص الاشورية من القرنين التاسع والثاني ق.م . كانت قد وصفت منطقة دمشق بالعبارة التالية : مات حمير شو أو مات شا حمير شو ، أي بلاد الحمير . ان هذه الظاهرة تستحق الدراسة والتحليل ، وقد أدلى كثير من الباحثين بأرائهم حولها . واختلفوا في تفسيرها . لذا فنحن أمام عدة آراء أقدمها فيما يلي :

لقد اهتم الباحثون في تحديد الصلة بين مات حمير شو ودمشق (١١) . وتساءلوا

عن مدى الارتباط بينهما وللإجابة على هذا التساؤل عدنا الى النصوص الآشورية فوجدنا أن الملك الآشوري سلما نصر الثالث ٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م . قد نسب جزائيل مرة الى بلاد الحمير ومرة الى دمشق عاصمة ملكه . أما في عهد هدد نيراري الثالث ٨١١ - ٧٨١ ق.م فنجد العبارة التالية « لقد ذهبت الى بلاد الحمير ومرئي ملك بلاد الحمير حاصرته في دمشق عاصمة مملكته » . ويتضح من هذا أن بلاد الحمير كانت في منطقة دمشق ، وعلينا أن نتحرى سبب هذه التسمية .

افترض بعض الباحثين أن عبارة شاحمير شو هي الترجمة الآشورية المغلوطة لاسم دمشق . فحرف د من دمشق هو اسم الإشارة ذو ومعناه شا في الاكادية . هذا صحيح غير أن المشكلة تكمن في التطابق بين مشق وحمير شو . ولحل هذا اللغز رأى الباحث الشهير شبايسر ما يلي : أن مسق هي من الفعل سقى ، وأن الحمير كانت تستخدم في تدوير غرافات المياه للسقاية . ولما سمعه الآشوريون فهموا المعنى غلطاً واستخدموا كلمة حمير للدلالة على السقاية . ان مثل هذا الرأي لا يأخذ بعين الاعتبار القرابة بين اللغة الآشورية والآرامية . لذا كان موضع نقد ورفض .

والى جانب هذا الرأي يوجد رأي آخر ينطلق من ترتيب مقاطع الكلمة . فجملة شا حمير شو كانت تكتب شا - ح - ما - ري - شو . وقد أراد الآشوريون بها كتابة بلاد آرام الا أنهم أخطؤوا في ترتيب المقاطع . لم يكن هذا الرأي مقبولا أيضا . فالغلط هنا فاحش والتحوير جذري لا يفترض أن يقوم به آشوري لهجته ابنة عم اللهجة الآرامية .

والواقع اننا لا نرى في هذه العبارة بلاد الحمير تحقيرا او تهكما على الديار الدمشقية وسكانها . فشبّه الجملة هذه صورة من حياة السكان الذين كانوا يستخدمون نوعا من الحمير الجيدة في القوافل وحمل الأمتعة . فالحمار واسطة النقل الجيدة والوحيدة ، يتسابق لاقتنائها التجار وغيرهم ، ويعرض في الاسواق لهذه الغاية . والحق يقال إن دمشق كانت ملتقى طريقين تجاريين هامين يربطانها بفلسطين وشرقي الأردن ومصر والبحر الاحمر . ومنها يذهب طريق الى تدمر ثم الى الجزيرة ، وآخر الى قادش وحماة وحلب ثم الاناضول . كانت القوافل تستخدم هذه الطرق وعمادها الحمير . وربما أراد الآشوريون أن يكتنوا في هذه العبارة أو شبه الجملة عن كثرة قوافل الحمير التي تحط بدمشق أو تمر بها أو تذهب منها .

بعد هذا التمهيد ، لنمض ونستعرض أحوال البلد السياسية . قلنا ان حركة القبائل الآرامية قد بدأت عند منتصف الالف الثاني ق.م . وجاءت اول اشارة الى وجودهم في بلاد الشام الجنوبية في ثبت أسماء الامكنة الذي يعود الى عهد الفرعون امنحوتب الثالث (١٤٠٣ - ١٣٦٤ ق.م) . اذ وردت عبارة (الشعب الآرامي أو

الاراميون أو بلاد آرام) وفي عهد الفرعون مرنبتح (١٢٢٣ - ١٢٠٥) ذكر أنه كانت لهذا الفرعون مدينة في بلاد آرام ونحن لا نستبعد أن يكون المقصود من بلاد آرام مملكة دمشق الآرامية . لان ملوكها كانوا الوحيد من بين الملوك الاراميين الذين لقبوا أنفسهم ملك آرام ، ولان مملكة دمشق كانت هي مملكة آرام (١٢) .

وفي نظرنا أن هذه الاشارات الى الاراميين ما هي الا شواهد على استقرار الاراميين في بلاد الشام الجنوبية وانتشارهم السريع في ربوعها في النصف الثاني من الالف الثاني ق.م . ومما يؤيد هذا الافتراض أننا نجد القبائل الآرامية قد استقرت في سهل الحولة والجولان وعلى ضفاف اليرموك ، وبينه وبين نهر الزرقاء ، وفي البقاع وسلسلة جبال لبنان الشرقية، ومناطق القلمون وغوطة دمشق وحوران وجبلها ، ثم استست ممالك وامارات ومشيخات هي: بيت رحوب التي امتدت ربوعها بين نهري الزرقاء في الجنوب واليرموك في الشمال . وقبيلة طوب وانتشرت منازلها الى الشرق من بيت رحوب ، وعلى الارجح في المناطق المجاورة لمدينة الزرقاء الاردنية . وقبيلة جشور في الحولة والجولان وعلى جانبي نهر الاردن . وقبيلة معكة : على سفوح جبل الشيخ الجنوبية والغربية وفي البقاع الجنوبي . قبيلة صوبا : اقوى قبائل الجنوب ، انتشرت في البقاع وسلسلة جبال لبنان الشرقية وغوطة دمشق وحوران ، وكانت لها السيادة على قبائل الجنوب ودخلت في صراع مع صموئيل وداود . نعرف من ملوكها هدد عزربن رحوب (صموئيل الثاني ، الاصحاح الثامن ، الاية ٣) ونرجح أن رحوب ليس والد هدد عزربن ، بل هو شيخ القبيلة التي ينتسب اليها أفرادها ، فهدد عزربن ظهر في القرن الحادي عشر ق.م . ورحوب عاش قبل ذلك بعشرات السنين . والواقع أن كتاب العهد القديم قد اعتبر بيت رحوب وصوبا قبيلة واحدة هبتا معا لنصرة بني عمون على داود ، وناصرهم آراميو صوبا ومعكة . ومما لا شك فيه أن هدد عزربن كان قد عمل على لم الاراميين وجمع شملهم ، ونجد اشارة الى هذا في حوليات الملك الاشوري سلما نصر الثالث (٨٥٨ - ٨٢٤ ق.م) ، الذي ذكر في معرض وصفه للاحداث التي وقعت في عهد اسلافه أن مدينة بيترو (على الضفة اليمنى لنهر الفرات ، قرب مصب نهر الساجور) ، كانت قد سقطت في أيدي ملك آرام ، إبان عهد الملك الاشوري آشور ربي الثاني (١٠١٢ - ٩٧٢ ق.م) . ولما كان هدد عزربن قد عاش في هذه الحقبة ، وهو الوحيد الذي لقب نفسه ملك آرام ، لا نستبعد أن يكون ملك آرام المشار اليه في حوليات سلما نصر هو هدد عزربن . واذا صح ذلك لابد أنه وصل الى هناك لتوحيد الاراميين وتخليصهم من السيطرة الاشورية .

وفي زمن هذا الملك كانت دمشق تابعة له ، ولم تكن قد أصبحت عاصمة الاراميين ويجب ان لا نندهش من ذلك فالاراميون لم يتخذوا من المدن الرئيسية الكنعانية عواصم

لهم ، بل جعلوها مع مدن أخرى ذات مواقع استراتيجية هامة ، مثل جوزن قرب رأس العين ، وتل برسيب على ضفة الفرات اليسرى . الخ.

بقيت دمشق كذلك حتى تمرد القائد رزون بن ايلي يدع على سيده هدد عزز ، فاغتصب منه السلطة وجعل من دمشق عاصمة الاراميين الجنوبيين . وفي عهده ، أي في الربع الاخير من القرن العاشر ق.م ، استتب الامن وقويت المملكة ، واصبحت سيدة الجنوب الشامي بلا منافس ، بعد أن بسطت نفوذها على كل الممالك .

جاء بعد رزون الملك طبّ رّمان الذي لا نعرف عنه شيئاً ، ثم جاء بعده ولده هدد عزز الثاني وفي عهده اعتلى عرش آشور سلما نصر الثالث ، الذي أخذ يتابع سياسة سلفه في محاربة الاراميين . فبعد أن قضى على مملكة بيت عديني ، التي امتدت على ضفاف الفرات من مصب نهر الساجور حتى دير الزور ، جعل من عاصمتها تل برسيب حصناً منيعاً له ، منه ينطلق في زحفه على بلاد الشام . ففي عام ٨٥٣ ق.م زحف بجيشه على الممالك الارامية ، فتصدى له هدد عزز ، الذي جمع ممالك بلاد الشام الجنوبية وجندب العربي ، وممالك الساحل الشامي من صور في الجنوب حتى سيانو شرقي جيلة في الشمال ، ومملكة حماه ، وزحف معهم للاقصة سلما نصر في الشمال ، والتقى الطرفان في موقع قرقور بالطرف الشمالي لسهل الغاب جنوبي جسر الشفور . فحدثت المعركة ، التي وصلتنا اخبارها من الطرف الاشوري فقط .

وحسب الرواية الاشورية كان جيش سلمانصر هو المنتصر والتحالف الارامي هو المنهزم . ولو اخذنا بعين الاعتبار كثرة الوثائق الاشورية التي تحدثت عن المعركة ، ثبت لدينا أن الجيوش الارامية هي التي هزمت والجيوش الاشورية هي التي انتصرت . الا أن الاحداث التي وقعت بعد انتهاء المعركة تدعونا أن نرجح بأن القتال قد توقف بين الطرفين دون غالب ومغلوب . فسلمانصر عاد الى آشور بعد انتهاء المعركة ، ولم يطارد الاراميين ، أو حتى يأسر ملكاً أو قائداً منهم ، ولو كان منتصراً للاحقهم وشتت شملهم ، واستولى على ممالكهم واستراح من محاربتهم .

هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فإن سلمانصر قد عاد الى محاربة الاراميين في عام ٨٤٩ فقصد حماه وقبل أن يصلها تصدى له التحالف السابق بقيادة هدد عزز وأرخوليني ملك حماه . وفي هذه المعركة ادعى الاشوريون النصر . وبعد فترة من الهدوء النسبي عاد سلمانصر الى بلاد الشام مرتين الاولى عام ٨٤٨ والثانية عام ٨٤٥ فتلقته الجيوش الارامية بقيادة هدد عزز وأرخوليني أيضاً وفي هذه المرة ، وكما في المرات السابقة لم يطارد الجيش الاشوري الجيوش الارامية ، ولم يحتل أية مدينة من

مدن الاراميين ، ولم يخلع أي ملك منهم وينصب آخر مواليا له مكانه ، مما يشير الى قوة التحالف وتمكنه من رد الاشوريين على أعقابهم خاسرين .

لم يقتل هدد عزر في حروبه مع الاشوريين ، بل لسوء حظه كان مقتله على يد عامل في بلاطه هو خزهايل / خزائيل ، الذي اغتال سيده وهو على فراش الموت ، حسبما ورد في سفر الملوك الثاني ، الاصحاح الثامن ، الايات ٧-١٥ . لقد حدث هذا عام ٨٤٥ أو عام ٨٤١ ، وسلمانصر مازال حاقدا على آرامي الجنوب ، يتحين الفرص للانقضاض عليهم ، هذا في المعسكر الاشوري ، أما في المعسكر الارامي ، فقد كان لهذا الحدث تأثير سلبي ، اذ انفرط عقد الاراميين وتفككت دويلاتهم وغدت كل دولة تقاتل الاشوريين بمفردها .

استغل سلمانصر الفرصة ، وزحف نحو دمشق ، دون أن يعترض احد طريقه اليها من الفرات وحتى منطقة دمشق ، حيث جمع خزهايل قواته للوقوف في وجهه . وتروي الوثائق الاشورية أن خزهايل قد فر من أرض المعركة ونجا بنفسه وبأفراد من قواته ، وتحصن في جبل سانيرو (حرمون) .

ولم تدخل القوات الاشورية المدينة بل زحفت نحو جبل حوران فدمرت واحرقت العديد من المدن ، ثم اتجهت صوب فلسطين فعبرتها حتى بعلي راشي ، أي رأس الناقورة .

بعد هذه الحملة الاشورية ، نعمت البلاد بفترة هدوء نسبية دامت أكثر من ثلاثين عاما ، لان الاشوريين كانوا قد انشغلوا بمشاكلهم الداخلية ، وانصرف الاراميون الى تنظيم شؤونهم والعناية بالعمران وغيره .

ومما سبق يمكننا القول ان الاشوريين لم يحققوا في عهد سلمانصر الثالث ، ولا طيلة القرن التاسع ق.م أية مكاسب في بلاد الشام ، بالرغم من حملات سلمانصر القوية ، ويعود الفضل في ذلك الى حنكة ملكي دمشق هدد عزر الثاني وخزهايل ، وقدرتهم على جمع الاراميين حولهم على الرغم من أن خزهايل كان مغتصبا للعرش ، وله أعداء بلا شك . واذا كان خزهايل مغتصبا للعرش ، فمن حقنا أن نتساءل عن نسبه: لقد وصفه النص الاشوري بالجملة التالية : خزهايل ابن لامن ، وتعني خزهايل بن لا احد أو لا رجل .

اذن خزهايل ، بعرف الاشوريين (ابن لا أحد) ، والمقصود أنه ليس من الاسرة المالكة ، بل هو مغتصب للعرش فمن أين أتى ؟ في عام ١٩٨٤م اكتشفت بعثة اثرية المانية اتحادية أثناء التنقيب في جزيرة ساموس اليونانية قطعة برونزية من لجام حصان تركب عادة على الجبهة فوق العينين عليها نص ارامي يقول « هذا / هذه ما قدمه

هدر لسيدنا خزە ايل من عمق باشان ، غره لسيدنا الجليل « (١٣) . ليس هذا وحسب بل عثر في معبد الرب ابولون بجزيرة اويو اليونانية على قطعتين برونزيتين تركبان عادة على سيور اللجام جانبي العينين ، وقد نقش فيهما نص مطابق للنص الذي ذكر اعلاه . وهذه القطع ، فيما نرى ، من لجام واحد أو على الاقل لعدة حصان للسيد خزە ايل . وقد وجدنا في مكانين متباعدين . أفليس هذا ملفتا للنظر .؟! .

هذه الكتابة لا تثبت بشكل قاطع أن خزە ايل ملك دمشق هو نفسه خزە ايل المذكور على هاتين القطعتين اذ لم تذكر الكتابة أن خزە ايل هو ملك دمشق . والحق اننا نفتقر الى وسيلة تمكننا من اثبات أن خزە ايل ملك دمشق هو المعني في الكتابة على القطع البرونزية . ومع ذلك ، وفي ضوء الصفة التي تمتاز بها الكتابة على القطع المعدنية نرجح أن خزە ايل هو خزە ايل ملك دمشق . اذ من الملاحظ أنه لم يذكر اسم والد خزە ايل ولا لقبه بل وصف بكلمة « سيدنا » وهذه الذاتية نجدها على كل الكتابات التي تخص خزە ايل ملك دمشق وهي : كتابة على قطعة عاجية من موقع ارسلان طاش قيل انها صنعت لسيدنا خزە ايل وعلى قطعة عاجية أخرى من موقع كلخو / النمروود في العراق كتب أيضا (لسيدنا خزە ايل) . يبدو أن هاتين القطعتين كانتا في الاثاث الدمشقي الذي غنمه تجلات فلصر الثالث ، كما سنرى ، ونقل الى ارسلان طاش / خداتو والنمروود / كلخو .

والى جانب هذه الصفة التي تنفرد بها كتابات خزە ايل ، هناك ما ذكرته واثاق سلمانصر من أنه هاجم خزە ايل - دمشق - كما ذكرت اعلاه - ولكنه لم يدخلها بل زحف على حوران وجبل حوران حيث دمر واحرق مدنا لا تحصى . فلماذا اختار حوران وترك دمشق والقرى المحيطة بها .

يوجد احتمالان الاول أن مرد اختيار حوران هو رغبة سلمانصر في القضاء على منازل عشيرة خزە ايل في باشان وبالتالي اضعافه ، وتجريده من عزوته . والثاني أن خزە ايل كان قد هرب من دمشق ، ومن المحتمل أنه توجه الى حوران ، الى أهله وعشيرته ليلوذ بهم . ويبدو في هذا الدليل على أن خزە ايل هو من باشان التي أصبحت فيما بعد تعرف بالنقرة ، وتمتد من نوى الصنمين في الشمال حتى اليرموك في الجنوب ، ومن وادي العلان في الغرب وحتى اطراف الجبل في الشرق .

ولا ثبات أن خزە ايل هو من باشان أو على الاقل من الجنوب . لا بد أن نستشهد بحجة عقد من الرمر عثر عليها في مدينة آشور وقد نقش عليها النص التالي : غنيمة من بيت الرب شرا في مدينة ملح مدينة في مملكة خزە ايل من بلاد حمير شسو ، الذي سلمانصر بن اشور ناصر بال ملك اشور ، حشره في قلب الدور في قلب المدينة (١٤) .

في هذا النص القصير يتحدث سلمانصر عن حشر خزهايل في قلب الدور بمدينة ملح التي فيها معبد للرب شرا وفي هذا اشارة واضحة الى أن ملح ما كانت مدينة عادية ، بل هامة فيها معبد . فأين تقع هذه المدينة ؟ توجد في الغوطة قرية المليحة نستبعد أن تكون هي المدينة المعنية لانه لا توجد فيها آثار تدل على أنها كانت مدينة من ذاك العصر . وفي محافظة درعا . الى الشرق من بلدة ازرع تقع قرية مليحة العطش . قد لا تكون هي ملح ذاتها اذ ليس فيها ما يدل على قدمها ، مع أنه عثر فيها على كتابة بيزنطية نعرف منها أن أسماها في العصر البيزنطي كان ملح .

وتبقى قرية ملح في محافظة السويداء ، الى الشرق من مدينة صلخد على أطراف البادية ، ونحن نرجح أنها هي مدينة ملح المعنية في كتابة سلمانصر . اذ كان فيها معبد للرب شرا في العصر النبطي وكانت لها أهمية في العصر الروماني أيضا .

بعد وفاة خزهايل حوالي ٨٠٣ ق.م خلفه ولده برهدد الثالث الذي تحدث عنه كتاب العهد القديم في سفر الملوك الثاني ، وبعض الوثائق الاشورية من عهد ادد/هدد نيراري الثالث ، ونصب ذكرير ملك حماه . ونبدأ في نصب ذكرير ملك حماه لانه يخبرنا عن حدث مهم جدا قام به برهدد الثالث في بدء حكمه فاكسبه شهرة واسعة ، الا وهو هجومه على ذكرير ملك حماه ولعش في احد حصونه ، مدينة حزرک . في عام ١٩٠٣م عثر على النصب في قرية آفس شمالي سراقب ، وهو الان في متحف اللوفر . وقد نذر النصب للرب الوير الذي حمى المدينة من الخراب والدمار اللذين كانا سيحلان بالمدينة على يد جيوش برهدد بن خزهايل والملوك الستة / السبعة عشر الذين تحالفوا معه وكان منهم برجوس / برجش ملك بيت أجوشي وملك قوي وجيشه (في كيليكية) وملك عمق وجيشه (في سهل العمق) . وملك جرجم وجيشه (جرجم عاصمتها مرعش) وملك شمال وجيشه (في حوض نهر الاسود على السفوح الشرقية لجبال الامانوس) وملك ميلز (ملاطية) وجيشه . وأسماء ثلاثة ممالك مع جيوشها ، ثم تتبع عبارة سبعة ملوك وجيوشهم . وبعد حصار شديد تراجعوا عن اسوارها وانتصر ذكرير بعون رب السماء بعل شمين .

وفي الواقع ليس بمقدورنا اظهار سبب الخلاف والحرب مع ذكرير ملك حماه فالكتابة مشوهة ، وليس فيها ما يدل على السبب . لم يلقب احد من ملوك حماه بلقب ملك حماه ولعش ، الا ذكرير الذي لا نعرف نسبه ويحتمل انه كان من لعش ، أي من منطقة سراقب الان ، فاغتصب عرش حماه مما آثار غضب ملوك الاراميين والحثيين ، فتحالفوا ضده بقيادة برهدد الثالث .

في النص ذكر للممالك الحثية في جنوبي الاناضول ، وللممالك الارامية في الشمال ،

ولم يرد فيه ذكر لممالك بلاد الشام الجنوبية ، بل اكتفى النص باجمالهم سوية تحت الرقم ٧.

ومرد ذلك على ما نعتقد ان تلك الممالك كانت تابعة لبرهدد ، وتنضوي تحت لوائه ، زد على ذلك انه وصف في النص على انه ملك ارام .

بعد وفاة برهدد الثالث تبعه خديانو الذي نعرف اسمه فقط ويبدو انه حكم في النصف الاول من القرن الثامن ق.م . أي قبل عام ٧٤٥ ق.م . هذا العام الذي اعتلى فيه عرش آشور الملك تجلات فلصر الثالث وحكم حتى عام ٧٢٧ ق.م . كان تجلات فلصر أقسى ملوك آشور ، محبا للحروب ، وخراب الديار ، فقد قصد دمشق عام ٧٣٢ ق.م وكان ملكها رزيان فحاصرها حتى سقطت بيده ، وجعل منها ولاية آشورية.

هكذا زالت مملكة دمشق الارامية ، وفي ضوء ما تقدم من اخبار. هل نستطيع تحديد رقعتها ونظام الحكم فيها ؟ يستفاد من أسماء المكان التي ذكرت في حوليات الملوك الاشوريين على انها في بلاد مملكة دمشق مثل :

— جبل سانيرو الذي هو جبل الشيخ أو جبل الزبداني أو الجبل الشرقي .
— المدن الهامة التي دمرها سلمانصر في حوران والجبل مثل الدنية/الدنية بجوار أزرع من الجنوبي الغربي وملح الى الشرق من صلخد .

ويستفاد أيضا من الاجراءات التي اتخذها تجلات فلصر عام ٧٣٢ ق.م بتقسيم مملكة دمشق الارامية الى ست عشرة ولاية نعرف منها :

- صوفيتي / صوبيني أي صوبا في سلسلة جبال لبنان الشرقية .
- منصوثا : وشملت اراضيها البقاع بأكمله .
- قرنين ، ومركزها قرنين ، وهي الان قرية الشيخ سعد . جنوبي بلدة نوى .
- حوران ويضم اراضي محافظتي السويداء وحوران اذ ذكرت فيها المتونة على طرف اللجاة الشرقي شمالي شهاب وكذلك البثنية الى الشرق من المتونة .
- الجولان وهو معروف .

اذن يستفاد من كل هذا ان مملكة دمشق قد ضمت البقاع وسلسلة جبال لبنان الى الشرق منه وامتدت شرقا الى البادية وجنوبا الى حوران وجبلها وغربا الى الجولان .

في هذه الرقعة انتشرت قبائل آرامية ذكرت بعضا منها في مستهل البحث واذا

اضفنا الى ذلك ان ملوك دمشق ما كانوا جميعهم من دمشق ذاتها ، بل كان هدد عزر من رحوب وخزيون وبرهدد الاول من دمشق وخزه ايل من باشان .

بناء على ما سبق يجوز لنا ان نفترض بأن مملكة دمشق الآرامية كانت مملكة اتحادية تضم قبائل يحكمها شيوخ يتبعون الملك

وبعد ، هذه باختصار المعلومات التاريخية الموثقة عن دمشق ، ونأمل ان نستطيع يوما التنقيب في دمشق ذاتها او في التلال الهامة المحيطة بها والتي كانت مدنا رئيسية في مملكة دمشق علنا نفني معرفتنا عن دمشق وسورية الجنوبية (١٥) .

الحواشي :

- (١) بشير زهدي ، مملكة دمشق الآرامية ، الحوليات الانثوية السورية مجلد ٨-٩ (١٩٥٨) .
- (٢) H. Sader, les Etats Araméens de Syrie depuis leur Fondation jusqu'a leur Transformation en provinces Assyriennes (1984) .
- (٣) W. T. Pitard, Ancient Damascus (1987) .
- (٤) W. Helck, Die Beziehungen Ägyptens zu Vorderasien im 3. und 2. Jahrtausend V.Chr. (1962) P. 312.
- (٥) W. Gesenius, Hebraisches und Aramaisches Handwörterbuch (1899) p. 181.
- (٦) W. T. Pitard, op. cit. p. 7-9 .
- (٧) W. Helck, op. cit. p. 276.
- (٨) W. Helck, op. cit. p. 231.
- (٩) W. T. Pitard, op. cit. p. 11.
- (١٠) W. T. Pitard, op. cit. p. 61.
- (١١) W. T. Pitard, op. cit. p. 14.
- (١٢) علي ابو عساف ، الاراميون ، تاريخا ولغة وفنا (١٩٨٨) ص ١٦ وما بعد .
- (١٣) Hikyrieleis und w. Rollig, Ein Altorientalisches pferdeschmuck Aus dem Heraion Von Samos, Mitteilungen Des Deutschen Archäologischen Instituts Athen Band 103 (1988) p. 62-75 .
- (١٤) المصدر السابق ص ٧٣ .
- (١٥) راجع كتابنا : الاراميون تاريخا ولغة وفنا بشأن مملكة دمشق الآرامية .